نقد الحداثة عند حنا أرندت من منظور أنثروبولوجي

عزة عبدالله عبدالمعبود إسماعيل
المعيدة بقسم الفلسفة- كلية الأداب ـ جامعة عين شمس
ahmedaboalia582@gmail.com

أ.د محمد يحيي فرج
أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة
بكلية الاداب جامعة عين شمس

د. نشوي صلاح محرم
مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة
بكلية الاداب جامعة عين شمس

الملخص :
لقد كان مشروع عصر التنوير بمثابة تأسيس للحداثة الغربية ، ومن أهم الأسس التي قامت عليها الحداثة العقل والحرية والعدالة واحترام كرامة الإنسان وحقوقه، بهدف التخلص من الظلم الذي ظل يعاني منه الإنسان ومن مختلف أشكال السيطرة التي عرفها في ظل المؤسسات الدينية والسياسية التي كانت سائدة في أوروبا في تلك الفترة. غير أنه وفي خضم التطور التاريخي تبين أن المشروع التنويري أًصبح أبعد عن تحقيق المبادئ والقيم الإنسانية التي قام عليها. فلم تعد الحداثة قادرة أو مؤهلة علي تحرير الإنسان من مختلف أشكال السيطرة التي أصبحت تهدد وجوده، وخاصة في ظل النظم الشمولية ، حيث اختفت الحرية وغاب العقل وانقلب التقدم بمفهومه الإنساني إلي انحطاط شامل، وهذا ما دفع أرندت إلي نقد الحداثة وما نتج عنها من أنظمة استبدادية تحديدا النظام الشمولي من أجل إعادة إنسانية الإنسان، حيث استطاعت الأنظمة الشمولية بتحويل الأفراد إلي نماذج حيوانية ـ بشرية، وذلك عندما قامت بالقضاء علي التعددية والتلقائية والفاعلية البشرية.
الكلمات المفتاحية: الانثروبولوجيا الفلسفية، حنا أرندت، العمل، الصنع، الفعل، الحداثة، الشمولية.

مقدمة

لقد شكل مفهوم الإنسان إحدى الزوايا الأساسية التي جُسد فيها خطاباً فلسفياً يسمح بالفهم الشامل له ولمختلف فعالياته في هذا الكون، فالإنسان كمفهوم أنثروبولوجي فرض نفسه كلغز يستدعي الحل وسط الإشكاليات الفلسفية المتفرعة منذ القدم . وفي إطار الاتجاه الأنثروبولوجي العام تشكل تيار خاص هو الأنثروبولوجيا الفلسفية[١] هدفه دراسة الإنسان وتحديد مكانته، للخروج من الأزمة التي عرفتها الإنسانية مع تنامي الحروب العالمية، والتي جعلت منه كائناً فاقدا للهوية والإرادة. ومن هنا ظهرت الأنثروبولوجيا الفلسفية وأصبحت فرعاً قائماً وأحد أهم المباحث الفلسفية، التي انصب اهتمامها حول تعزيز قيمة الإنسان في هذا العالم.

[١]- علم من العلوم البينية الذى يشكل مجالاً معرفياً حديثاً نسبياً ، وبالرغم من جذوره الضاربة في فكر كانط ، إلا أن هذا العلم قد نشأ و تبلور كعلم مستقل في القرن العشرين،وهو ما يعد واضحاً في أعمال هيلمت بلسنر وماكس شيلر.

وتنطلق الأنثروبولوجيا الفلسفية عند حنا أرندت[٢] من تتبع نشاطات الإنسان الأساسية التي يمارسها في العالم، وقامت بترتيب هذه الأنشطة بشكل هرمي حيث وجدت أن الحياة الإنسانية تتكون من ثلاثة أنشطة رئيسية وكل نشاط يقوم بدورما في حياة الإنسان، وهذه الأنشطة هي العمل، والصنع، والفعل[٣]. والعمل هو النشاط الذي يتوافق مع العمليات البيولوجية والتي يجب القيام بها دائما للحفاظ علي البقاء[٤]. فهو كل الأنشطة التي تحركها حاجات الإنسان الضرورية لأجل سدها وحماية بقائه. ومن ثم فإن العمل يتسم بطابعه الذي لا ينتهي، كما يتسم بكونه ممارسة غير حرة، لأنها خاضعة لمتطلبات الحاجة والضرورة، وكل ما تقوم به يفني باستهلاكه عند سد الحاجة، فمن يمارس نشاطا لأجل أن يوجه ثمرته لسد حاجته، ودون أن تبقي تلك الثمرة بعد سد الحاجة فهذا الشخص "يعمل"[٥].

والنشاط الثاني هوالحرفة أوالصنع، وهي الأنشطة التي يقوم فيها الإنسان بصناعة وابتكار أشياء هدفها تسهيل حياة الإنسان والتقليل من متاعب العمل، وهذه الأشياء تبقي بعد استخدامها كصناعة الأدوات الحرفية، وكل الأعمال التي تنتج أشياء تبقي في العالم ولا تفني باستخدامها كأعمال النحاتين والفنانين والحرفيين. بالطبع، قد يكون غرض الفنان والنحات والحرفي من صناعة منتوجاته أن يدر دخلا يستخدمه في سد حاجته، ولكن طالما ما صنعه بقي بعد استخدامه، ولم يفن فلا يعد ما يقوم به عملا ولكن حرفة أوصناعة. وهكذا يوفرالصنع عالما مصطنعا من الأشياء والتي تتميز بشئ من الدوام[٦].

ومن هنا يتضح أن الصنع يتميز عن العمل بعدة طرق منها:

ـ إذا كان العمل هدفه سد الحاجة، ونتاجه يفني بالاستهلاك كالزراعة، فالصنع هدفه تسهيل العمل ونتاجه يبقي في العالم بالرغم من استهلاكه كصناعة الأدوات والماكينات.

ـ في حين أن العمل يرتبط بالمتطلبات البيولوجية للحفاظ علي البقاء، فإن الصنع يقتحم عالم الطبيعة من خلال تشكيله وتحويله وفقا لخطط واحتياجات البشر، وهذا ما يجعل الصنع نشاطا إنسانيا متميزا (أي غير حيواني).

ـ لأن الصنع تحكمه غايات ونوايا إنسانية فهو يخضع لسيادة الإنسان وسيطرته ويمتاز بقدر من الحرية، علي عكس العمل الخاضع للطبيعة وبالتالي للضرورة. ولكن علي الرغم من أن الصنع يتمتع بقدر من الحرية إلا أنه يعد ممارسة غير حرة لكونها أولا تستهد ف سد الحاجة، وثانيا لأن ممارسة الصنع بطبعها تقوم علي العنف من حيث أنها تحول المواد بالعنف والتشكيل إلي أشياء.

---

[٢]- حنا أرندت(١٩٠٦ـ١٩٧٥) مفكرة ومنظرة ألمانية يهودية، من أهم الفلاسفة السياسيين في القرن العشرين، درست الفلسفة وعملت بالتدريس الجامعي والصحافة السياسية، وبالرغم من ذلك كانت ترفض دعوتها بالفيلسوفة لما في الفلسفة من سعي نحو صورة واحدة للإنسان وتجاهل صفة التعددية التي تتسم بها الإنسانية. تتلمذت علي يد كل من مارتن هايدجر وكارل ياسبرز،عاشت خلال فترة حكم النازية في ألمانيا وتعرضت للإضطهاد،لذلك هاجرت إلي الولايات المتحدة، وهناك تفرغت لتحليل النظم الشمولية.

[٣]- C.Higgins: Labor,Work,and Action: Arendts Phenomenology of Practical Life, Journal of philosophy pf Education,Vol,44,No,203,2010.

[٤]- Majid Yar: Hannah Arendt, Internet Encyclopedia of Philosophy, Lancaster University, United Kingdom.

[٥]- رامي مجدي: الديمقراطية مزعجة ولكن يجب حمايتها: قراءة في مفهوم الحرية والسياسة عند حنا أرندت،مج١٨،ع٧٠، دارالمنظومة،٢٠١٨،ص١١،١٢.

[٦]- المرجع السابق، نفس الموضع.

ـ في حين أن العمل يهتم بتلبية احتياجات الفرد الخاصة بحياته وبالتالي يعد نشاطا خاصا، إلا أن الصنع بطبيعته عمومي لأنه يخلق عالما موضوعيا ومشتركا بين البشر ويعمل علي توحيدهم[٧].

خلاصة القول. العمل والصنع كلاهما ممارسة غير حرة لخضوعهما بشكل آو بأخر للضروريات الجسدية والمادية وممارسة العنف، ومن ثم لا يعبران عن الحرية ولا الإنسانية.

أما النشاط الثالث فهو الفعل، والفعل هو ذلك النشاط الجماعي ـ المشترك الذي يكون بين البشر من دون وساطة المادة أوالأشياء، وإذا كان العمل يتسم بطابعه الحيوي من حيث سعيه لحماية الحياة وضمان البقاء بسد الحاجة، والحرفة تتسم بطابعها الدنيوي من حيث قدرتها علي صناعة أشياء تبقي في العالم وتعمره، فإن الفعل يعد تعبيراعن حالة التعددية البشرية، وفي هذا تقول أرندت: "الناس وليس الإنسان، يعيشون ويسكنون الأرض"[٨]. وعلي الرغم من أن العمل والصنع أنشطة يمكن تحقيقها بمعزل عن الاخرين، إلا أن الفعل يتطلب وجود الاخرين ولا يمكن أن يتحقق في العزلة[٩]. والتعددية فحواها أن البشر متساوون ولكن متميزون عن بعضهم البعض، وتؤكد أرندت بأنه إذا كنا نسخا متشابهة من بعضنا البعض فما فائدة اللغة والفعل بين الناس، فاللغة والافعال دليل علي أن البشرفي حاجة للتواصل والتعبيرحتي يمكنهم فهم بعضهم بعضا لاختلافهم[١٠].

وعلي الرغم من إقرارأرندت بأهمية الأنشطة الإنسانية الثلاثة وأنها ضرورية بنفس القدرلحياة إنسانية كاملة، بحيث أن كل واحدة منها تساهم بطريقتها المميزة في تحقيق قدراتنا البشرية، إلا أنها تولي اهتماما خاصا بالفعل، وتري أن السمتان الرئيسيتان المميزتان للفعل هما التعددية والحرية. والحرية عند أرندت لا تعني القدرة علي الاختيار من بين البدائل الممكنة. ولكنها تعني القدرة علي البدء، أي بدأ شئ جديد للقيام بما هو غير متوقع، والذي يمتاز به جميع البشر بحكم الولادة. فالفعل متجذر في المواليد بحيث أن كل ولادة جديدة تمثل بداية جديدة أي قدوم عنصر جديد إلي العالم[١١].

ولما كانت إنسانية الإنسان تتحدد بسموه عن الممارسات التي يماثله فيها الحيوان كالاهتمام بالغريزة وسد الحاجة والعنف، فالفعل إذن هو الممارسة الوحيدة الحرة التي يقوم بها الإنسان، وذلك لعدم خضوعه لضرورات الحاجة والعمل. فالفعل هو الذي يخلص الافراد من ضغوطات المادة والحاجة، بحيث يسعون من خلاله لفعل أشياء عظيمة تليق بكونهم بشرا. ومعيار العظمة هو قدرة الإنسان علي تجاوز محدوديته. ولما كانت محدودية الإنسان الكبري هي فناءه وتعرضه للهلاك، كانت عظمته بأن يفعل أفعال عظيمة تترك له أثرا في العالم بعد وفاته وتخلد ذكراه، وتجاوز المحدودية ليس بتجاوز الهلاك فحسب، ولكن أيضا بتجاوز

---

[٧] Ibid.

[٨] Melis Bas:A Peinterpretation of Hannah Arendt as Aphilosopher of Technology, Faculty of Behavior Sciences, University of Twente, 2013,p12.

[٩] Ibid,p2.

[١٠] مرجع سابق،ص١٢.

[١١] Maurizio Passerin Dentreves: Hannah Arendt,Stanford Encyclopedia of Philosophy, Stanford University,2019.

محدودية الجسد والغريزة، وذلك بالقيام بأفعال تخالف الممارسات الحيوانية بسد الحاجة (أي مخالفة العمل)، وتكون تلك الأفعال هدفها تخليد أصحابها بترك أثرهم في العالم[١٢].

والفعل العظيم هو فعل جديد يعبر عن بداية الفرد واشتراكه مع الاخرين وسعيهم سويا لتخليد ذكري عظمتهم في العالم، بحيث لا يفنون بموتهم ميتة حيوانية. فالفعل يسعي للمجد الخالد، لا للمادة ولا لغايات حيوانية. ومن ثم، فحرية البشر تحدث عندما يتعاونون في الفعل، أي في ممارسات مشتركة تهدف لتحقيق الجديد والعظيم. وتري أرندت أن السياسة فحسب هي المساحة التي يمكن أن يحدث فيها الفعل وتحقق الحرية، أي المساحة التي تجمع وتسمح للأشخاص بالتعاون والسعي نحوالمجد وللعظمة[١٣].

ولما كانت السياسة وحدها تسمح بتلك الأفعال العظيمة، وليس العمل ولا الحرفة، كانت السياسة الحرة هي النافذة والمساحة التي يمكن للإنسان فيها تجاوز محدوديته، وحماية إنسانيته. ومن هنا فقد ارتبطت الحرية بقدرة كل فرد علي الفعل، علي البدء، علي التأسيس، علي إيجاد شئ جديد في هذا العالم، وهي كلها صفات تطلق علي كل مواطن حر قادر علي إنجاز شئ جديد في هذا العالم، من خلال قدرته علي الفعل والكلام والحوار والتفاعل مع الاخرين. فالحرية تتكون من المشاركة الفاعلة والدائمة في السلطة الجماعية، أي قدرة الفرد علي التأثير في الحياة العامة باعتباره فاعلا، حيث لم يكن الاهتمام بالحياة الخاصة لأنها ليست جزءا من حياة السياسة، فما يهم هو أن يكون "الفرد سيدا في الشئون العامة". فحرية القدماء هي حرية سياسية لا ملكة عقلية فقط أو شعورا داخليا، وتتجسد في ميدان الحياة السياسية، بوصفها الحياة الحقيقية التي يمارسها فيها الإنسان، الحرية كفعل بعد أن يتحرر من حاجاته العضوية[١٤].

ولقد أنشئت المدينة ـ الدولة من أجل أن تكون مكانا لممارسة الفعل السياسي الذي هو في جوهره فعل حر، بعيدا عن عالم الفرد الخاص ـ عالم الأسرة، عالم اللاحرية ـ بوصف المدينة مكانا جديدا فتح أمام الفرد الفاعل لا أمام النوع الحيواني. لهذا كان اليونان يعتبرون التحرر من الضرورة البيولوجية أول فضيلة تمكن الإنسان من أن يدرك ماهيته الحقيقية، من حيث هو (حيوان سياسي) يرتبط ب (الحيوان الناطق)، انطلاقا من أن اللغة تمنح الفرصة للمواطن بأن (يتجلي) و(يظهر)، لأنه يخرج من ظلمات الخاص نحو عالم المدينة، ويستطيع أن يتفاعل مع الأخرين من خلال اللغة (الكلام).

وكافة تلك الجوانب قد اجتمعت لتشكل التجربة اليونانية الفريدة: المدينة واللغة والحرية. فالانتقال من خطاب شفوي إلي خطاب عقلاني منظم بقواعد، تلازم مع تأسيس المدينة وبداية الانشغال بالسياسة، حيث الحاجة إلي طريقة جديدة للخطاب قائمة علي الحوار العقلاني وعلي الإنصات إلي الأخر، بعيدا عن علاقة الهيمنة والسعي لفرض الرأي الأخر. ومنحت هذه الأداة مكانا أرحب لليوناني للخروج من عالمه الخاص والارتباط بعلاقات مع الأخرين أساسها المساواة. كما كانت اللغة عاملا أساسيا في بناء تعددية حقيقية علي المشهد السياسي لأثينا، لأن الحوار يفتح الفرد علي خطابات أخري، علي رؤي مختلفة تمنح أفكاره واقعية تعرض علي أحكام الغير، انطلاقا من أن أفكاره لم تعد ملكا خاصا له، بل أصبحت مشتركا جماعيا[١٥].

---

[١٢] مرجع سابق،ص١٢.

[١٣] المرجع السابق نفس الموضع.

[١٤] المصطفي الشادلي: حنا أرندت ونقد التصور الفلسفي للحرية، مجلة تباين للدراسات والأبحاث، العدد٢٥، ٢٠١٨، ص٣٨.

[١٥] مرجع سابق، ص٣٨.

وتؤكد أرندت علي أن العالم الحقيقي هو عالم الفعل والممارسة والحركة، والحركة ليست محض نشاطا فيزيائيا، بل هي قصد أو توجه نحو الأخر، نحو المختلف، بتوسل اللغة والكلام الحر. ولقد رأت أرندت في الحكم الشمولي أكبر تهديد يتعرض له الإنسان وشرطه الذي هو الحرية، وهو ما حول السياسة من مكان للحوار والنقاش والمساواة بين الناس وتحقيق التعددية السياسية والفكرية إلي ميدان للعنف والترهيب والتخويف، وتحويل السلطة من قدرة علي الفعل والكلام الحر إلي وسيلة للقمع والهيمنة والسيطرة والتحكم[١٦].

وهكذا، فلقد أسهمت الحداثة وفقا لأرندت في ظهور دولة تمتلك كافة التدابير، دولة قادرة علي إحلال الإدارة والقيادة السياسية محل الشبكة الكاملة الخاصة بمراكز التحكم الاقتصادي والسياسي. فالمقولات الحداثية التي وإن كان فحواها يمتلئ بالعقلانية والتحرر والتقدم إلا أن تلك المقولات لم تؤدي إلا إلي تخبط الإنسان في العدمية، حيث كانت السبب في غربة الإنسان عن العالم .وفراره من الأرض، بل وانسحابه من فضاء الفعل والظهور، مما أدي إلي تحوله إلي حيوان عامل، وإلي مواطن بلا وطن. وأكدت أرندت علي أن الحداثة ساهمت في ظهور الأنظمة الشمولية، مما أدي إلي الإغتراب والإنفصام بين الناس، وشاع اللاتواصل واللاتحاور بسبب إختراق الشمولية للبنية السياسية والإجتماعية للمجتمع، فبعدما كان عالما قائما علي تواصلية الناس، والتفاهم المشترك بينهم من أجل مصلحة الجميع، جاءت الأنظمة التوتاليتارية وغرست مظاهر العنف المتمثلة في الخوف والرعب، وأصبحت الإنسانية عبر بقاع العالم تعيش حالة من التوجس من المستقبل المجهول، بسبب حاضر طغي عليه التعنيف والتقتيل والدمار والتخريب وهو ما جعل هذا العصر يمكن وصفه بزمن الضحايا، فالشمولية همها الوحيد إلتهام من يخالف الرأي، بتكتيم أفواه كل معارض سواء كان سياسيا أو مثقف حر. ولكن ما المقصود بالحداثة؟ وما هي سمات المشروع الحداثي الذي جاءت أرندت لتقويضه؟ وكيف أدت الحداثة إلي نشأة الأنظمة الشمولية؟ بل وما المقصود بالأنظمة الشمولية؟

الحداثة هي ذلك الموقف الذي يتميز بمحاولة وضع الإنسانية ولا سيما العقل البشري في قلب كل شئ ابتداء من الدين ومرورا بالطبيعة، والعلاقات الإجتماعية، والإقتصاد والسياسة. ولقد جاءت الحداثة لتخليص الإنسان من أوهامه، وتحريره من قيوده، وتفسير الكون تفسيرا عقلانيا واعيا. وعليه فالحداثة تدل علي القطيعة المستمرة مع التقاليد والموروثات التي تحد من مركزية الإنسان وعقلانيته. أي أنها تسعي إلي رسم خطا فاصلا بين القديم والجديد، وتبني أنساقا جديدة من التصورات في الميادين العلمية والسياسية والإبداعية[١٧].

ولقد صاحب الحداثة كذلك انتقال تدريجي في كيفية احتكار السلطة من الارتكاز علي العصبيات الدموية والاقليمية والعشائرية الي التكتل الطبقي التدريجي، وأصبح المعيار السياسي هو المصلحة وليس التضامن أو القرابات العرقية والقبلية، مما أفسح المجال لظهور تنظيمات سياسية جديدة قائمة علي الأيديولوجيا والأحزاب[١٨]. وبهذا يتضح أن الحداثة قد جاءت لتطبق علي مختلف الأصعدة الإقتصادية والسياسية والاجتماعية، ومن أهم الأسس التي قامت عليها الحداثة: الذاتية، والعقلانية، والعلموية.

---

[١٦] المرجع السابق،ص٤٤.

علي عبود المحمداوي: الإشكالية السياسية للحداثة من فلسفة الذات الي فلسفة التواصل، منشورات الإختلاف، الجزائر، الطبعة الأولي، ٢٠١٥، ص٨٩ – ٩٠.

[١٨] محمد سبيلا: مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولي، ٢٠٠٩، ص ١٢٧.

وتعد الذاتية هي الأساس الأول للحداثة لأنها تعيد جميع المعايير والحقائق إلي الذات الإنسانية، وجعلها الكفيلة بصناعتها، سعيا منها إلي اتمام القطيعة المبتغاة مع التراث، الذي أنتج المعايير بواسطة قوة خارجة عن إرادة الإنسان، وبالتالي فهي التي تصنع حقائقه. وتعني الذاتية مركزية الذات الإنسانية وحريتها وفعاليتها علي جميع المستويات، ويتضمن مبدأ الذاتية أربعة مفاهيم هي: الفردانية، والحق في النقد، واستقلالية الفعل، والفلسفة التأملية.

أما العقلانية فتمثل الركن الثاني في الحداثة، والعقلانية تعتمد علي الإستقلال عن العوامل الخارجية الميتافيزيقية بشأن المعرفة الذاتية والاجتماعية والطبيعة، وهكذا تأسست العقلانية علي الذاتية الإنسانية. ذلك أن الذات تنظمها قوانين عقلانية ومعقولة، بحيث أن بروز الإنسان كذات يتجلي في قدرته علي مقاومته ضغوط العادة والخضوع فقط لحكم العقل. وبما أن العقل شرط الإنسانية ، فالعقلانية هي الممارسة الإنسانية التي يجب أن تنظم حياة ذلك الإنسان، ومنه يجب أن تكون نظاما، بشتي مقولاته عن الخارج أو الأخر (عن الطبيعة أو الإنسان)، يعبر عن تلك العقلنة. وترتبط فكرة الحداثة بالعقلانية والتخلي عن أي منها يعني رفض الأخري .

أما العلموية فتشير إلي ثقة الإنسان بالعلم إلي الحد الذي جعل منه المعيار الأوحد للحقيقة، فالمعرفة تصبح مساوية للعلم، وهو المعرفة الحقة والصحيحة، وهي إحدي تجليات الحداثة. والعلموية هي نظرة متماسكة أو اتجاه متماسك يهدف إلي جعل العلم هو الشكل الوحيد والمطلق للمعرفة، والقادرعلي حل المشكلات في الواقع العملي،والذي بإمكانه إرضاء حاجات الإنسان. وتعني العلموية من زاوية أخري، موقفا عقائديا يتجه إلي اعتبار العلم كبناء كلي يتشكل من قضايا حقيقية ومعارف نهائية. [١٩] ولقد ساهمت العلموية، اعتمادا علي العقلانية في استمرار فاعلية إزالة الوهم والخرافة عن العالم، حيث ساد الإعتقاد بأن كل ما هو موجود وكل ما يستجد في العالم محكوم بقوانين باستطاعة العلم الإحاطة بها ومعرفتها كما بإمكان التقنية العلمية السيطرة عليها.أن العقل بصورته الجديدة قد أصبح علمويا تقنيا، وهو بذلك يمكننا من السيطرة علي العالم بالتقنية والعلم، وعمليا من الحصول علي السعادة. فالعلموية تعني إيمان العلم بذاته.

غير أن السؤال الذي نطرحه هنا هو : كيف تحولت الحداثة التي كانت في البداية تعبيرا عن فكرة التقدم الإنساني والتحرر، إلي أسطورة تخفي السيطرة والهيمنة؟ أو بعبارة أخري كيف يمكن تفسير تدمير العقل الحداثي لنفسه بحيث أصبحت الإنسانية تخوض في حالة جديدة من البربرية بدل أن تصل إلي حالة إنسانية حقيقية؟

تري أرندت بأن ذلك قد تم عندما تحول العقل لأداة للسيطرة علي الطبيعة ثم علي الإنسان، والمقصود بالعقل هنا العقل الأداتي أو التقني القائم علي التكميم والموجه نحو ما هو عملي وتطبيقي ونفعي. حيث نجح العقل الأداتي في تشييئ الإنسان واستخدامه من قبل المؤسسات الإقتصادية والسياسية وأجهزتها الأيديولوجية القائمة علي تكريس المصلحة والهيمنة بصورها المختلفة. وترجمة العقلانية إلي نظم شمولية وتسلطية بدورها. وذلك ما حدث للمجتمعات الغربية التي عرفت تقدما علميا وتقنيا كبيرا وحققت قفزات كبيرة في عمليتي التحديث والعقلنة، لكنها وقعت فريسة النازية والفاشية والستالينية[٢٠].

[١٩] مرجع سابق،ص١٠٧

[٢٠] كمال بومنير:النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت،منشورات الإختلاف،الجزائر،ط١،٢٠١٠،ص١٣

لقد سبق أن أشرنا إلي أن الحداثة كانت تهدف في البداية إلي تحرير الإنسان من الخرافة والسحر والمعتقدات الفاسدة، قصد إخراجه من وضعه السلبي والدفع به ليمارس حريته ويحقق سعادته وتقدمه. غير أن الحداثة انقلبت إلي نقيض ذلك تماما، وذلك أن الحداثة، وإن ادعت تحرير الإنسان من عبودية الخوف والأساطير وأدخلت العقل كأداة حاسمة في التعامل مع الأشياء والعلاقات والطبيعة والتاريخ، فإنها في نهاية المطاف استسلمت لأساطير من نوع جديد. فالعقل الذي رفض الأسطورة وعمل علي اجتثاث أسسها وبنيتها وكان ضدا لها قصد تحرير الإنسان من الخوف والخرافة ومساعدته علي بلوغ الرشد وجعله سيدا علي الطبيعة ومركزا للكون، قد ارتد وحطم نفسه وانتهي إلي الأسطورة أي اللاعقل.

وهو ما يعني أن التقدم لن يمكن تحقيقه وتجسيده علي أرض الواقع، نظرا لأن التقدم يعني قبل كل شئ التخلي عن الخرافات، وهذا ما عبر عنه كانط في ما التنوير بقوله: " إن بلوغ الأنوار هو خروج الإنسان من القصور الذي هو مسئول عنه، والذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير. وإن المرء نفسه مسئول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس نقصا في العقل، بل نقصا في الحزم والشجاعة في استعماله دون إرشاد الغير. تجرأ علي أن تعرف، كن جريئا في استعمال عقلك أنت، ذاك هو شعار الأنوار"[٢١].

وفي الوقت الذي أكدت فيه الحداثة علي أن التقدم الإنساني لا يمكن تحقيقه إلا بالمزيد من العقلانية ومن خلال الثورة المعرفية والعلمية، فإن ذلك لم يتحقق فعلا علي أرض الواقع، بقدر ما تحقق نقيضه أي الأساطير الجديدة المتمثلة بصورة خاصة في البربرية. ولقد كان المثال الأكثر وحشية لذلك هو النازية، باعتبارها الحالة النموذجية للبربرية التي عرفها المجتمع الألماني الذي وصل إلي ذروة الترشيد والضبط والتقنين والعقلنة[٢٢].

ومن هنا جاءت نظرة أرندت للعقلانية والمعرفة العلمية والتقنية علي أنها أداة تحرر الإنسان وانعتاقه وفي الوقت نفسه هي أداة سلب حريته ومصدر شقائه. غير أن النقد الموجه للعقلانية والمعرفة العلمية لا يعني أنها ضد العقل والعلم والتنوير ذاته، وإنما هو نقد موجه في الأساس للإنحراف الذي عرفه التنوير والعقلانية والحداثة عبر مسار التطور التاريخي الذي عرفته الحضارة الغربية، وكيف تم التراجع عن قيم التنوير (العقل، الحرية، التقدم) التي كان هدفها تحرير الإنسان، لتصبح مجرد أسطورة جديدة فتحولت العقلانية إلي اللاعقلانية.

ويمكن القول، انطلاقا مما سبق، أنه بقدر ما تنمو المعرفة العلمية ـ التي أخذت طابعا أداتيا ـ بقدر ما يجد الإنسان أن أفاق حريته وسعادته تتقلص وكذلك استقلاله الذاتي باعتباره فردا، بل إن قدرته علي التخيل والحكم المستقل يتناقص أيضا. وذلك لأنه علي الرغم من أن الإنسان يعيش في مجتمعات جعلت الحرية والسعادة والتقدم شعارا لها، إلا أنه يُمارس عليه أشكال مختلفة من القهر داخل المؤسسات السياسية والإدارية والإقتصادية وفي مقدمتها مؤسسة الدولة التي أصبحت في زماننا هذا تستند في نشاطاتها ووظائفها إلي المعرفة العلمية والتقنية وإلي الخبراء المختصين في مختلف المجالات. ولهذا استطاعت الدولة أن تتحول إلي نظام شامل للقمع والقوة والسيطرة، فعرضت الإنسان لأشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي وغير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية

[٢١] إيمانويل كانط: ما الأنوار، تعليق وترجمة: محمود بن جماعة، محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٥،ص٨٥.
[٢٢] المرجع السابق،ص١٥.

والاستهلاكية والإعلامية التي تشبه ألات هائلة يحاول الناس أن يكيفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها. هذا، وقد أصبحت السيطرة التي تمارسها العقلانية الأداتية علي الإنسان اليوم أخطر وأشمل من السيطرة التي عرفها في الماضي، لأنها شملت عقله وعواطفه ورغباته وغرائزه وجسده. وهذا عندما أصبح خاضعا لوسائل الدعاية والإعلام التي تعمل علي ترويضه واختزاله في بعده الاستهلاكي، فأصبح فاقدا لأبعاده ولم يعد يقوم إلا ببُعد واحد وهو البُعد الاستهلاكي. وذلك لأن العقلانية الأداتية أو التكنولوجية أصبحت تفرز أشكالا جديدة من الوسائل والطرق والأليات القمعية التي تسحق الإنسان كليا وتحرمه من حريته واستقلاله الذاتي، وتحاول إقناعه بالحرية المزيفة، وهي بذلك تختزله في البعد الاستهلاكي الذي يحول الوجود الإنساني برمته إلي وضع بائس. وقد بلغت في ذلك حدودها القصوي في النظم الشمولية[٢٣] أو التوتاليتارية، وما عرفته من وحشية وبربرية، فتحول التقدم إلي انتكاسة وتراجع خطير أصبح يهدد مصير هذه الحضارة .لأن هذه الوحشية أو البربرية التي تجلت في مأساة الحرب العالمية الثانية وفي الهولوكوست، وما خلفته هذه الإبادات من ضحايا لم تكن ذات طابع تقليدي وإنما استندت بالأحري علي المعرفة العلمية والتكنولوجية ويظهر ذلك في طبيعة الأسلحة والعتاد والوسائل الحربية التي تم استخدامها.

لقد عملت أرندت علي تحليل صعود الأنظمة الإستبدادية في القرن العشرين، وهي ظاهرة تقع في تقديرها خارج الفئات التقليدية للفلسفة الغربية، ولقد كانت النازية والستالينية هما أبرز أشكال الأنظمة الشمولية في القرن العشرين[٢٤]. و تشير كل من "الدولة الشمولية" و "الدولة الكليانية" إلي بنية مؤسساتية وإلي مجموعة من الممارسات المنتظمة حول توسع التدخل السياسي ليشمل الحقل الإجتماعي برمته. فهما تندرجان بشكل طبيعي ضمن صنف "الكليانية" التي تعني شكلا عاما للهيمنة الكلية علي السكان والأفراد وأنشطتهم وعلي الممارسات الإقتصادية والثقافية. فالشمولية هي ذلك النظام الذي تنصهر فيه كل السلطات: التشريعية والقضائية والتنفيذية، لتكوين سلطة قاهرة تمارس سيطرة شاملة علي الأشخاص وأنشطتهم، وتتدخل في تفاصيل حياتهم، بل وتحولهم إلي جثث حية، مما يجعلهم غرباء بل وفاقدين الأمل بذواتهم[٢٥]. وفي هذا تقول أرندت: " تختلف الشمولية عن كل أشكال القمع السياسي الأخري، فأينما وصلت إلي السلطة ، دمرت كل التقاليد الإجتماعية والسياسية والقانونية للبلاد"[٢٦] .

تهدف الشمولية إلي القضاء علي الفعل الإنساني، فسيطرتها تنحو إلي إلغاء الحرية، بل وتميل إلي القضاء علي كل ظاهرة عفوية بشرية عامة ولا تكتفي بتقليص الحرية. فالنظام الشمولي هو غياب كل سلطة

---

[٢٣] أول من استعمل مصطلح الشمولية ـ التوتاليتارية ـ كان جواني امندولا وهو الصحفي والسياسي المناهض للفاشية في عام ١٩٢٣، وذلك في إشارة منه إلي معاداة موسوليني لليبرالية واستهانته بقواعد ومبادئ القانون.(ينظر: إيزاك، جيفري سي، "نقاد الشمولية" في كتاب" مجموعة مؤلفين، الفكر السياسي في القرن العشرين، تيرنس بول وريتشارد بيللامي، ترجمة: مي مقلد، ومراجعة : طلعت الشايب، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٢٥٦.

[٢٤] Steve Broune and John Verkleir: Hannah Arendt on Ideology and Totalitarianism, Inter collegiate studies Institute, 2016.

[٢٥] غيوم سيبرتان ـ بلان: الفلسفة السياسية في القرنين، ٢٠،١٩،ترجمة:عزالدين الخطابي، مراجعة: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١،٢٠١١، ص٢٤٩.

[٢٦] Ibid

أو تراتبية من شأنها أن تعين نظام الحكم. فلقد قامت الأنظمة الشمولية بتسييس كلي للوجود البشري، بحيث لم يتبق لهم أي حرية علي الإطلاق. لذا فإنه يوجد شك متعلق بتوافق السياسة والحرية. ربما تكون الأشياء قد تغيرت منذ القدم، حيث أن السياسة والحرية كانتا متشابهتين، أما في ظل هذه الظروف المعاصرة، يجب عليهما من الان فصاعدا أن تنفصلا الواحدة من الأخري تمام الانفصال. لأن تجربة التسييس الشامل الخاصة بالأنظمة الشمولية تتعارض دوما مع القول بأن معني السياسة هو الحرية[٢٧].

وتتشكل الأنظمة الشمولية بالأساس من تنظيمات جماهيرية، تضم إليها أفرادا مبعثرين ومعزولين. فولادة النازية جاءت من صلب الحركات الجماهيرية الفاقدة وعيها التاريخي والتي امنت بأن ممارسة العنف أمر عادي جدا، تقول أرندت " لقد كان النازيون علي قناعة بأن الشر يمارس ي عصرنا قوة جذب مرضية" ، وتستطرد أرندت " إن افتتان الدهماء بالشر والجريمة افتتانا أكيدا ليس بالأمر الجديد، إذ لطالما ثبت أن الرعاع يرحبون بأعمال العنف قائلين بإعجاب: لئن كان جميلا، فإنه بالغ القوة بالتأكيد"[٢٨]. وتؤكد آرندت أن التوتاليتارية تقضي إنجراف الجموع المشتتة المستلبة أي "الكتل المتجمهرة" ، التي تعبر عن تكتل المجموعات الإنسانية، بمعني تصبح الجماهير لا تجمعها نظرة واحدة، ولا مصالح مشتركة، ولا جذور لها، ولا مقومات تجمعها، بل هي عبارة عن ذرات متناثرة تشكلها الأنظمة التوتاليتارية كما تشاء[٢٩].

وتؤكد أرندت علي أن الشمولية تتبع قوة الأعداد وحدها ، بحيث تبدو تلك الأنظمة محالة في بلدان ذات تعداد سكاني محدود نسبيا. فالأنظمة الشمولية تكون ممكنة حيثما توجد جماهير عريضة وفائضة من السكان. وعبارة الجماهير تنطبق علي " الناس الذين عجزوا بسبب أعدادهم الضخمة، أو بسبب اللامبالاة أم للسببين معا، عن الإنخراط في أي من التنظيمات القائمة علي الصالح المشترك سواء كانت أحزابا سياسية أو مجالس بلدية أو تنظيمات مهنية أو نقابية"[٣٠]. وتشكل الجماهير غالبية الشرائح العريضة من الناس الحياديين واللامبالين سياسيا، والذين نادرا ما يصوتون ولا ينتسبون إلي أي حزب. وعلي هذا فإن أتباع الحركة التوتاليتارية هم جمهرة من الناس المحايدين، اللامبالين، الذين لا ينضمون لأي حزب ولا يذهبون إلي صناديق الإقتراع مُطلقا، والذين كانوا موضع رفض من الأحزاب الأخري جميعها، لاعتبارهم غاية في البلادة أو الحماقة، مما يصرف النظر عنهم. وغالبا ما تكون معظم هذه الجماهير مجموعة مُشكَلة من أناس لم يتسن لهم الظهور علي الساحة السياسية من قبل. وهكذا تنمو الجماهير من شظايا مجتمع مُجزأ للغاية، ولا تنحصر الميزة الأساسية لهؤلاء الجماهير في الوحشية أو التأخر الذهني، ولكن في العزلة والنقصان في العلاقات الإجتماعية[٣١].

والميزة الأوضح التي الشمولية عن كل الأحزاب والأنظمة الأخري تكمن في "اقتضاء الولاء اللامحدود" وغير المشروط وغير المتبدل من قبل الأفراد . وهكذا فمن أجل تنظيم الحركة التوتاليتارية لابد من جعل الولاء ـ ولاء الفرد والجماعة ـ تاما، وذلك هو الأساس النفسي في الاستبداد التام. في حين أن ولاء كهذا لا يمكن توقعه إلا من كائن بشري معزول بالكامل، كائن مجرد من روابطه الاجتماعية، التي تصله

[٢٧] علي عبود المحمداوي: العنف والشمولية وإمكان استعادة الفعل السياسي،ص٤٩.
[٢٨] حنا أرندت: أسس التوتاليتارية،ص٣٣.
[٢٩] حنا أرندت: أسس الشمولية،ص٧٣.
[٣٠] المرجع السابق،ص٥١.
[٣١] Zoe Williams: Totalitarianism in The Age of Trump, Lessons from Hannah Arendt ,2017.

بعائلته، وأصدقائه، ورفاقه أو محض معارفه، فرد لا يستشعر نفعه إلا من خلال انتماءه إلي حركة أو حزب[٣٢]. وحتي يتم تدمير جميع العلاقات الإجتماعية والعائلية تقوم تلك الأنظمة بتهديد الأفراد بمواجهة نفس المصير الذي وصل إليه المتهم، مرورا بمعارفه وأصدقاءه وأقربائه. فالإسلوب الذي اتبعته الشمولية يتلخص في أنه كلما وقع إتهام شخص يتحول أصدقاؤه القدامي مباشرة إلي أعدائه الأكثر شراسة، ولإنقاذ حياتهم الشخصية يصيرون من المخبرين ويسرعون بتقديم وشايتهم ضده للتأكيد بأنهم جديرون بالثقة. وبنظرة للماضي، سيحاولون أن يبرهنوا بأن علاقتهم أو صداقتهم مع المتهم لم تكن سوي وسيلة للتجسس عليه والإبلاغ عنه باعتباره مخرب أو فاشي، وبما أن الجدارة تُقاس بعدد عمليات التبليغ عن المتهمين، فالحل الوحيد هو تجنب الإتصال الشخصي بأي فرد قدر الإمكان[٣٣]. وبمواصلة هذه التقنية نجح قادة الشمولية في خلق مجتمع مُجزأ مثلما لم نشاهه من قبل، ومثلما لا تستطيع خلقه الأحداث ولا الكوارث.

وهكذا فلقد نجحت الشمولية في تصفية الجماعات بصورة فعلية، حيث تمكنت من تدمير كل روابط الفرد الاجتماعية والعائلية. حيث عملت هذه الأنظمة بطريقة يتهدد فيها مصير الفرد وكل علاقاته المعتادة ، بدءا من معارفه البسيطة ومرورا بأصدقائه وانتهاء بأهله المقربين. وبمجرد أن يتهم شخص، يتحول أصدقاؤه القدامي تلقائيا إلي أعداءه الألداء، ويصبحوا وشاة ويسعون إلي اختلاق الأدلة التي لا وجود لها، والتي تثبت وشايتهم، وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تثبت أنهم جديرون بالثقة، وبالمقابل، يجهدون في إثبات أن علاقتهم به أو صداقتهم معه لم تكن إلا طريقة للتجسس عليه والإبلاغ عنه باعتباره مخربا أو عميلا[٣٤].

أما بالنسبة للقائد التوتاليتاري فيمتازبأنه ذلك الرجل الفريد الذي احتكر في نفسه المعرفة، والذي تقوم حسنته الأولي علي كونه "صاحب حق دوما، وسوف يكون علي حق أبدا". لهذا يكون القائد في هذه الأنظمة عصيا علي الإبدال، ليس بفضل مواهبه الفائقة، وإنما بسبب قناعة المحيطين به في أن كل شئ دونه يصير إلي ضياع بما لا يعوض. كذلك لا يستطيع القائد التوتاليتاري أن يصفح عمن ينتقد مأموريه، طالما انهم يعملون دوما بإسمه، فإذا شاء أن يصحح أخطاءه التي إنساق إليها، توجب عليه أن يضفي أولئك الذين ارتكبوا هذه الأخطاء بأوامر منه، وإذا أراد أن يحمل أخطاءه إلي اخرين، استوجب أن يقتلهم. وطالما أن القائد احتكر لنفسه حق الشرح وامكانيته، فبدا إزاء العالم الخارجي بمثابة الشخص الوحيد الذي يعرف ما يفعل، أي باعتباره ممثل الحركة الوحيد الذي يمكن التحدث إليه. ولما كان القائد في مركز الحركة، أمكنه التصرف كما لو كان أعلي منها[٣٥].

ويرتبط القائد الشمولي بالجماهير، فهو مُرتهن بإرادة الغوغاء التي يمثلها، كما أنهم مرتبطون به، وبدونه لا يمكن أن يكون لها تمثيل خارجي وتظل حشدا غير متبلور، ولقد كان هتلر واعيا بدقة بهذا الترابط حيث عبر عنه في إحدي خطبه قائلا: " كل ما أنتم عليه تكونونه عبري، وكل ما أنا عليه أكونه من خلالكم"[٣٦].

---

[٣٢] مرجع سابق،ص٤٧.
[٣٣] مرجعسابق، ص٥٤.
[٣٤] مرجع سابق،ص٥٤.
[٣٥] مرجع سابق،ص١٢٢.
[٣٦] حنا أرندت: النظام الشمولي أليات التحكم في السلطةوالمجتمع، ترجمة: نادرة السنوسي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر،ط١، ٢٠١٩،ص٦٩.

و ينظر الديكتاتور التوتاليتاري شأن الفاتح الأجنبي إلي مصادر الثروات الطبيعية والصناعية في كل بلد، كما في بلاده، باعتبارها مصدر نهب دائما ووسيلة لإعداد المرحل الاتية من التوسع العدواني. وهذه السياسة الاقتصادية القائمة علي الاغتصاب المنظم تكون لصالح الحركة، وليس لصالح الشعب أو الأمة. فالديكتاتور التوتاليتاري، شأنه شأن الفاتح الأجنبي، لا يكون نتاج نهبه مفيدا لأي شخص. والسؤال الذي يطرح نفسه الان هو: كيف يستطيع القائد إقناع الجماهيربتأييد الأنظمة الشمولية؟

تعد الدعاية من أهم الاليات التي تستخدمها الأنظمة الشمولية للسيطرة علي الجماهير واكتساب تأييدها. وفي البلدان التوتاليتارية يتلازم الإرهاب والحملة الدعائية، حتي ليكونا وجهين لعملة واحدة. فأينما وجدت التوتاليتارية فإنها تبسط رقابتها المطلقة، وأبدلت الدعاية بالتلقين العقائدي، وشرعت في استخدام العنف لتحقيق عقائدها واثبات مزاعمها. والغرض من الحملة الدعائية هو اجتذاب المؤيدين، ونيل دعمهم. وعلي هذا فالحملة الدعائية هي أهم الوسائل التي يستخدمها النظام التوتاليتاري ضد العالم غير التوتاليتاري[٣٧]. وعلي هذا فالحملة الدعائية جزء لا يتجزأ من " الحرب النفسانية" التي تشنها الشمولية علي الأفراد الخاضعين لها". ولا تتوقف قوة الحملة الدعائية التوتاليتارية علي إقناع الجماهير وتنظيمها فقط بل وأيضا في قدرتها المتعاظمة علي قطع الصلة بين الجماهير والعالم الواقعي. فالدعاية الشمولية يُقاس نجاحها بمدي قدرتها علي الهروب من الواقع إلي الوهم والخداع والخيال، ومن ثم تكمن قوتها في فقدان المنطق السليم صلاحيته[٣٨]. وبفضل تعميمات كهذه يسع الحملة الدعائية التوتاليتارية أن تقيم عالما جديرا بأن ينافس العالم الحقيقي، الذي تتمثل كبري سيئاته في كونه عديم المنطق، وغير متجانس وغير منتظم[٣٩]. حيث يسعي القائد التوتاليتاري من خلال الحملات الدعائية إلي استغلال القلق الذي يراود الجماهير وذلك عبراختلاق قصص خيالية تتهافت الجماهيرعلي تصديقها، فالأشخاص الذين يشعرون بأنه قد تم إهمالهم ونسيانهم يتوقون دائما إلي سرد قصص تعدهم بالوفاء والتأييد ـ حتي وإن كانت خياليةـ لتهدئة ذلك الشعور القلق الذي يواجهونه. ومن هنا أصبحت القصص الخيالية أكثر جاذبية من الحقائق والحجج المعقولة[٤٠].

إن السبب الأساسي الذي يجعل الحملة الدعائية التوتاليتارية تتفوق علي حملات الأحزاب الأخري هو أن مضمونها لا يعتبر مسألة موضوعية ينبغي للمرء أن يكون له رأي حيالها، وإنما يصير هذا المضمون في حياتهم عنصرا بين الواقعية وعصيا علي المس شأن قواعد الحساب. لذا فإن تنظيم نسيج الحياة بكامله لا يمكن أن يبلغ تمامه علي أحسن وجه إلا في ظل نظام توتاليتاري[٤١].

ولما كانت الحملة الدعائية عصية علي المس بسبب الحجج القائمة علي واقع تعد الحركات بإبداله، ولما كانت عصية علي المس بسبب أنها تنشأ عن عالم أو تسعي إلي الدفاع عن عالم لا تسع الجماهير التائهة أن تحافظ عليه ولا هي تريد القبول به، بات من المتعذر أن ينقضها إلا واقع اخر، أقوي وأفضل. ولا يمكن للمرء أن يتبين ضعف الحملات الدعائية التوتاليتارية الملازمة لها إلا في ساعة الهزيمة. وبمجرد أن يحرم

---

[٣٧] مرجع سابق،ص٧٩.

[٣٨] Jeffrey C. Isaac: How Hannah Arendts Classic Work on Totalitarianism Illuminates Todays America, 2016.

[٣٩] مرجع سابق،ص٨٤

[٤٠] Richard J .Bernstein: The Illuminations of Hannah Arendt,2018.

[٤١] مرجع سابق،ص١٠٧.

أعضاء الحركة التوتاليتارية من قوة حركتهم، يكفون عن الأخذ بالعقيدة التي كانوا مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيلها. وفي اللحظة التي تدمر فيها الحركة، أي ذلك العالم المتوهم الذي يأويهم، تعود الجماهير إلي موقعها البدائي حيث كانت أفرادا معزولين، فيصير هؤلاء إما سعداء لقبولهم وظيفة جديدة في عالم متبدل، أو يهوون ثانية في انعدام جدواهم دونما أمل. أما عن قادة الحركة، فإنهم يغادرون صفوف الحركة بهدوء وكأنما كان ذلك رهانا سيئا، وينصرفون إلي البحث عن توهم جديد واعد، أو ينتظرون حتي يكتسب التوهم القديم قوة كافية لأن تطلق حركة جماهيرية من جديد[٤٢].

لطالما دعيت الحركات التوتاليتارية جمعيات سرية قائمة في وضح النهار، حيث استطاعت التنظيمات التوتاليتارية أن تستعير كثيرا من طرائق التنظيم من الجمعيات السرية. ولقد كان هتلر وستالين منتميان بالفعل إلي جمعيات سرية قبل أن يصيرا قائدين شموليين. ولكن علي الرغم من أن هذه المنظمات انتهجت الكثير من سمات الجمعيات السرية إلا أنها لم تسعي إلي التكتم حول هدفها الحقيقي. وبعبارات أخري، مضت الحركات التوتاليتارية تقلد الجمعيات السرية، بيد أنها راحت تفرغها من الأمر الذي يميز أساليبها وهو ضرورة الإحتفاظ بالسر[٤٣]. ولكن إذا تمكن القائد بإقناع الجماهير من خلال الحملات الدعائية، فما هو السبيل إذا لفرض سيطرته ؟

لما كان القائد التوتاليتاري يوجه سياسته وفق غاية حكم العالم الإفتراضية، اقتضي أن يعامل ضحايا عدوانه بمثل القساوة التي يعامل بها المتمردين، أي المحكومين بالخيانة العظمي. وعلي هذا فضل أن يحكم الأراضي المحتلة بواسطة الشرطة، دون القوات المسلحة[٤٤]. ولا تتضمن مهمة الشرطة التوتاليتارية في اكتشاف الجرائم، بل في تنفيذ أوامر الحاكم حين يقرر إلقاء القبض عل فئة من السكان. وتنفرد الشرطة السرية في ظل الأنظمة التوتاليتارية باحتكار بعض المعلومات الحيوية، حيث أنها تصير خازنة أعظم أسرار الدولة، وهذا يعني تلقائيا تناميا في الإمتياز والهيبة. وبهذا المعني يكون عملاء الشرطة السرية الطبقة الوحيدة التي تحكم الدول التوتاليتارية حكما مفتوحا علي مداه، وعلي هذا فإن مقاييسها وميزان قيمها جعلت تطبع كل نسيج المجتمع التوتاليتاري. ومن هذا المنظور، لا غرابة في أن يجد المرء أن بعض صفات الشرطة السرية الخاصة، إن هي إلا صفات عامة تنشأ من المجتمع التوتاليتاري، أكثر من كونها خصوصيات تتميز بها الشرطة السرية التوتاليتارية. ولما كان المجتمع منطبعا بالمعايير التي كانت فيما مضي حكرا علي الشرطة السرية، وكان يحيا من وسائلها، بات مجالا تعيث فيه الشرطة السرية التوتاليتارية فسادا.

وتجدر الإشارة إلي أن مفهوم الجريمة والمجرمين لدي الشرطة السرية التوتاليتارية قد تبدل تماما. حيث مضت الشرطة السرية تعمل علي تغييب كل الأثار التي قد يخلفها المحكوم وراءه. وبالفعل فإن الشرطة السرية الروسية كانت قد شارفت بصورة تدعو إلي القلق علي تحقيق هذا المثال في الحكم التوتاليتاري. إذ كانت الشرطة تملك ملفات سرية عن كل فرد من سكان البلاد الفسيحة الأرجاء، حيث دونت مختلف العلاقات القائمة بين هذا الفرد والناس، وبينه وبين كل المعارف الطارئين، وكذلك معرفة صداقاته الحقيقية وروابطه العائلية. ذلك أن المتهمين، كانوا يخضعون، إلي استجواب دقيق غايته اكتشاف هذه العلاقات دون

[٤٢] مرجع سابق،ص١٠٨.
[٤٣] مرجع سابق،ص١٢٤.
[٤٤] مرجع سابق،ص١٩٩.

غيرها. وتجدر الإشارة إلي أن الحركة قبل استيلائها علي السلطة كانت تمتلك شرطة سرية وجهاز تجسس تمتد فروعه إلي بلدان عديدة. وتتلخص مهمة الشرطة السرية وجهاز التجسس الرئيسية بتشكيل طوابير خامسة، وتوجيه فروع الحركة والتأثير في السياسات الداخلية للبلدان المعنية. وبصورة عامة تقتضي هذه المهمات بتهيئة كل الظروف إلي حين يتسني للقائد التوتاليتاري ـ بعد إجراء الإنقلاب علي الحكم أو في حالة الإنتصار العسكري ـ أن يشعر أنه في منزله، وأن يرتاح إلي كل الأمان المتوفر[٤٥].

وهكذا استطاعت الأنظمة الشمولية تقديم مفهوم جديد كليا لا نظير له في السياسة، حيث انعدام الجذور واهمال المصالح الوطنية أكثر من الإعتداد بالقوميات، وجهلها الاختياري للمصالح المادية، وبعدها عن حافز المصلحة، وسلوكاتها غير النفعية بعامة، ساهمت كلها أكثر من أي عامل اخر، في جعل السياسة المعاصرة عصية علي التوقع.

وتأسيسا علي ما تقدم يمكننا القول بأن العلاقة بين الحداثة والشمولية ليست حالة شاذة أو حالة من حالات تعطل العقلانية، بل إنها تكشف ما يمكن أن تفعله النزعات العقلانية الحديثة إذا ما ترك لها الحبل علي الغارب، وإذا ما تاكلت تعددية القوي الاجتماعية. فالشمولية نافذة علي العواقب التي جلبها النموذج الحديث القائم علي الفعل العقلاني والذي يرتكز علي السلطة الجديدة وافاق القوة الحديثة الناتجة عن توظيف الأشياء في خدمة الأهداف فحسب. فالقوة التي أفرزتها الحداثة تري (البشرية) في حالة كبيرة من العجز، وأبناء الجنس البشري في حالة من النقص والوهن والخنوع، وفي حاجة ماسة إلي التحسين والتطوير، ومن هنا لا يبدو انتهاكا للأخلاق أن تتعامل الحداثة مع البشر علي أنهم نباتات لابد من تهذيبها أو اقتلاعها من جذورها إذا اقتضي الأمر، أو أن تتعامل معهم علي أنهم قطعان ماشية لابد من تربيتها. حيث اسهمت الحداثة في ظهور دولة تمتلك كافة التدابير، دولة قادرة علي إحلال الإدارة والقيادة السياسية محل الشبكة الكاملة الخاصة بمراكز التحكم الاقتصادي والسياسي. والأهم من ذلك أن الظروف الحديثة أمدت القيادة والإدارة بكل ما تحتاجه. فالحداثة كما نعلم عصر النظام المصطنع وعصر التصميمات المجتمعية الكبري، إنها عصر أصحاب الخطط، والرؤي المستقبلية. وبوجه أعم، الحداثة عصر(البستاني) الذي يتعامل مع المجتمع علي أنه قطعة أرض بكر لابد أن يصممها بدقة، ثم يفلحها، ويعتني بها حتي تصير كما أراد.

ولقد استطاعت الدولة الشمولية فعل أي شئ ترغبه بحق من تحكمهم. فلا يوجد حد أخلاقي يحول بين الدولة وبين ما تريد أن تفعله، ولا توجد سلطة أخلاقية فوق سلطة الدولة. وموقف الفرد في الدولة الحديثة، لا يملك سوي خيارين اثنين: إما أن يمتثل للمعايير التي يضعها من يملكون السلطة أو أن يتحمل العواقب. حيث تستخدم الأنظمة التوتاليتارية معسكرات للإعتقال والإبادة ، وتعد هذه المعسكرات المثال النموذجي عن السيطرة الكلية العامة. حيث تؤدي هذه المعسكرات إلي فهم البشر وإدراكهم، ونعني بذلك الألام التي تحول الناس إلي حيوانات خاضعة. إن هذا الإرهاب الدموي الذي لجأت إليه التوتاليتارية كان مكرسا لتحقيق المصير الوحيد في جعل الخصم ينهزم، وجعل كل معارضة مستحيلة في المستقبل. وتعد معسكرات الإعتقال هي أهم مؤسسة في النظام التوتاليتاري. ومثل هذا الجحيم التوتاليتاري لا يثبت سوي أمر واحد، هو أن سلطة الإنسان وصلت إلي درجة لم يتخيلها أحد من قبل، حيث أصبح بمقدوره أن يحقق روعة

[٤٥] مرجع سابق،ص١٨٨.

جحيمية دون أن تهوي السماء أو تنفتح الأرض[٤٦]. وهكذا فلقد استطاعت التوتاليتارية كل الوسائل في سبيل القضاء علي الطابع الفريد في الشخصية البشرية. ولقد أثبتت تجربة معسكرات الإعتقال أن كائنات بشرية يمكن أن تتحول إلي نماذج من حيوانات بشرية. إذ لا تنحو التوتاليتارية إلي حكم الناس حكما استبداديا، وإنما تميل إلي نظام يكون فيه البشر كالدمي لا تنطوي علي أي ملمح من العفوية. ولما كان الإنسان يملك في نفسه الكثير من الموارد، فقد بات من المستحيل أن يخضع بالكامل إلا شرط أن يتحول نموذجا من نوع حيواني - بشري. لذا تكون الطبائع البشرية تهديدا للنظام التوتاليتاري، فالفردانية هي كل ما يميز الإنسان عن الاخر، وهي أمر لا يمكن التسامح حياله. لذا كان علي التوتاليتارية أن تقضي بالضرورة علي كل أثر مما تعارف الناس علي تسميته بالكرامة البشرية. إذ أن احترام الكرامة البشرية ينطوي علي الإعتراف بالناس الاخرين أو الأمم الأخري، باعتبارهم أشخاصا ذوي حضور، وباعتبارهم بناة عوالم أو مشاركين في تأسيس عالم مشترك.

ويمكن استخلاص النتائج التي توصلنا لها في بعض النقاط:

- اهتمت أرندت بالبحث في الحالة الإنسانية وحذرت من الخلط بين الوضع البشري والطبيعة البشرية، لأن الحديث عن الطبيعة البشرية يعني الحديث عن كائنات لها طبيعة محددة وثابتة لا تتغير، وبالتالي يمكن وصفها والتنبؤ بها لأننا نعرفها سلفا كالحيوانات مثلا. أما الإنسان فهوذلك المخلوق الذي لا يمكن التنبؤ بتصرفاته،والذي يتلخص وضعه أو شرطه في الحرية والتعدد مما يجعله عصيا علي التوقع.

- قدمت أرندت تصنيفا للوضع البشري يعتمد علي أهم الأنشطة الأساسية التي يقوم بها الإنسان وهي: العمل والصنع والفعل. وهذه الأنشطة علي الرغم من تنوعها واختلافها إلا أن كل منها ضروريا لأنه يشارك في تحقيق قدراتنا البشرية.

- ترتبط الأنشطة الإنسانية الثلاثة بظاهرة الميلاد، فالعمل والصنع ضروريان لإنشاء عالم يولد فيه إنسان جديد باستمرار والحفاظ عليه. ولكن يعد الفعل - في نظر أرندت - هو النشاط الأكثر ارتباطا بالولادة، فمن خلاله يُعيد الأفراد تفعيل مُعجزة البدء المتأصلة في ولادتهم. فالبداية التي يمتلكلها كل منا بحكم المولد يتم تحقيقها في كل مرة نتصرف فيها، أي في كل مرة نبدأ فيها بشئ جديد. وفي هذا تقول أرندت: "إن البداية الجديدة المُحايثة للولادة تجعل من الوافد الجديد لديه القدرة علي بدء شئ جديد ألا وهو الفعل".

- من خلال الفعل يستطيع الإنسان الكشف عن هويته باعتباره كائن فريد ومتميز، أما العمل والصنع فعلي العكس من ذلك. ففي العمل يتم محو الفردانية الخاصة بكل شخص من خلال الإلتزام بسلسلة من الضروريات والقيود البيولوجية . وهكذا فعندما ننخرط في العمل، فإننا لا يمكننا إلا إظهار التشابه، باعتبارنا جميعا ننتمي إلي الجنس البشري ولنا احتياجات طبيعية لابد وأن نُلبيها. أما بالنسبة للصنع فعلي الرغم من أن كل عمل فني أو إنتاج يحمل إسم صانعه، إلا أن المنتج النهائي يظل تابعا للشركة المُصنعة أوالجهة المالكة. ومن ثم فالمنتج النهائي لا يكشف سوي القليل عن الصانع باستثناء حقيقة أنه قادراً علي صنعه، أي أنه لديه قدرات ومواهب معينة جعلته قادرا علي صناعة شئ جديد، إلا أن هذا ليس كافيا لإضفاء التفرد والتميز للكائن البشري والذي يوفره الفعل له.

[٤٦] زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ترجمة: حجاج أبو جبر، دينا رمضان،مراجعة وتقديم: حجاج أبو جبر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٤،ص١٩١.

ـ تؤكد أرندت علي أن الفعل لا يمكن أن يتم سوي في نطاق يسوده الحرية، وهذه الحرية توفرها السياسة من خلال الفضاء العام أو المجال المشترك الذي يجمع الأفراد جميعا بعد أن تخلصوا من الضرورة المفروضة عليهم بواسطة العمل والصنع . وهذا المجال المشترك بمثابة طاولة يجتمع الأشخاص حولها، وتربطهم بقضية مشتركة، إلا أنها في نفس الوقت تفصلهم عن طريق الجلوس علي مقاعدهم الخاصة ومواقفهم الفردية.
ومن هنا فلكي تصير إنسانا حرا لابد وأن تخرج من مخبأك "أي تخرج من عالمك الخاص، عالم الضرورة والعمل والصنع" وتعلن عن نفسك بواسطة اللغة ـ ومن ثم تنضم إلي تلك الطاولة ـ أي تشارك في الحياة العامة المشتركة أي حياة الفعل. ولكن إذا توقفت هذه الطاولة فجأة عن الوجود، فإن الأشخاص المتجمعين حولها لن يكونوا علي صلة ببعضهم البعض، ومن ثم سيعود كل منهم إلي عالمه الخاص.
ـ أكدت أرندت علي أن الحداثة هي المسئولة عن القضاء علي المجال العام للفعل والكلام لصالح المجال الخاص أي انتصار الحيوان العامل. حيث استبدلت التعددية والحرية بالعزلة والوحدة مما أدي إلي تآكل التضامن الإنساني وكل أشكال العيش التلقائي، ومن ثم انتصار الحيوان العامل.
ـ تتبلور الإشكالية الرئيسية للحداثة ـ في نظر أرندت ـ بأنها كانت السبب الرئيسي في صعود الأنظمة الشمولية. وذهبت أرندت إلي أن الشمولية تمثل شكلا جديدا من أشكال الحكم، وتختلف بشكل تام عن الأشكال الأخري من الاضطهاد السياسي المعروف مثل الطغيان والديكتاتورية من حيث أنه يُطبِق الإرهاب لإخضاع السكان "أي الشعوب"، بدلا من الخصوم السياسيين فقط.
ـ استطاعت أرندت تقديم صورة لهؤلاء الأشخاص المعزولين، الذين أصبحوا عُرضة للأيديولوجيات وحُرموا من حقهم في الحرية. وعلي الرغم من أنه قد يبدو للبعض أن انتقاد أرندت للحداثة كان مُغاليا بعض الشئ، إلا أن هذا التقييم شكلته التجربة التي عايشتها، بل وعانت منها في ظل النازية. ومن هنا جاء تأكيدها علي أن الشمولية صناعة حداثية ، حيث لم تكتف بسلطة سياسية مُطلقة فقط ، ولكنها سعت إلي السيطرة علي كل جانب من جوانب الحياة كمقدمة للهيمنة علي العالم، ومن ثم استحقت الهجوم والنقد.

المصادر والمراجع:

أولا المصادر:

- إيمانويل كانط: ما الأنوار، تعليق وترجمة: محمود بن جماعة، محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٥.

ـ حنا أرندت: النظام الشمولي أليات التحكم في السلطة والمجتمع، ترجمة: نادرة السنوسي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر،ط١، ٢٠١٩.

ـ حنا أرندت: أسس التوتاليتارية، ترجمة: أنطوان أبوزيد، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط٢٠١٦،٢.

ثانيا المراجع العربية:

ـ المصطفي الشادلي: حنا أرندت ونقد التصور الفلسفي للحرية، مجلة تباين للدراسات والأبحاث، العدد٢٥، ٢٠١٨.

ـ رامي مجدي: الديمقراطية مزعجة ولكن يجب حمايتها: قراءة في مفهوم الحرية والسياسة عند حنا أرندت،مج١٨،ع٧٠، دارالمنظومة،٢٠١٨.

ـ زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ترجمة: حجاج أبو جبر، دينا رمضان،مراجعة وتقديم: حجاج أبو جبر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٤

ـ سيبرتان ـ بلان: الفلسفة السياسية في القرنين، ٢٠،١٩،ترجمة:عزالدين الخطابي، مراجعة: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١،٢٠١١.
ـ علي عبود المحمداوي: العنف والشمولية وإمكان استعادة الفعل السياسي،عدنان للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠١٤.
ـ علي عبود المحمداوي: الإشكالية السياسية للحداثة من فلسفة الذات الي فلسفة التواصل، منشورات الإختلاف، الجزائر، الطبعة الأولي، ٢٠١٥.
ـ كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، منشورات الإختلاف، الجزائر،ط١،٢٠١٠.
محمد سبيلا: مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولي، ٢٠٠٩.
ثالثا المراجع الأجنبية:
Higgins.C.: Labor,Work,and Action: Arendts Phenomenology of Practical Life, Journal of philosophy pf Education,Vol,44,No,203,2010.
Isaac Jeffrey C. : How Hannah Arendts Classic Work on Totalitarianism Illuminates Todays America, 2016.
[1] Yar,Majid: Hannah Arendt, Internet Encyclopedia of Philosophy, Lancaster University, United Kingdom.
Passerin Dentreves,Maurizio: Hannah Arendt,Stanford Encyclopedia of Philosophy, Stanford University,2019.
Bas,Melis:A Peinterpretation of Hannah Arendt as Aphilosopher of Technology, Faculty of Behavior Sciences, University of Twente, 2013,p12.
Bernstein, Richard J: The Illuminations of Hannah Arendt,2018.
Broune,Steve and Verkleir ,John: Hannah Arendt on Ideology and Totalitarianism, Intercollegiate studies Institute,2016.
Williams, Zoe: Totalitarianism in The Age of Trump, Lessons from Hannah Arendt ,2017

Criticism of Modernity at Hanna Arendt from an Anthropological Perspective

Azza Abdullah Abd -Almaaboud

Prof. Muhamed Yahia Farag — Prof. of modern philosophy

Dr. Nashwa Salah — lecturer modern philosophy

Abstract:

The Enlightenment project was a foundation for Western modernity, and one of the most important foundations of modernity was reason, freedom, justice and respect for human dignity and rights, and this is in order to get rid of the injustice that people have been suffering from and from the various forms of control that he knew under the religious and political institutions that It was prevalent in Europe at that time. However, in the midst of the historical development, it became clear that the enlightening project has become far from achieving the principles and human values on which it was based. Modernity is no longer able or qualified to liberate man from the various forms of control that have threatened its existence, especially in the context of totalitarian regimes, where freedom has disappeared, the mind has disappeared, and progress in its human concept has turned into a total decline, and this has led Arendt to criticize modernity and the resulting despotic regimes Specifically, the totalitarian system for the restoration of human humanity, whereby totalitarian regimes managed to transform individuals into animal-human models when they eliminated human pluralism, spontaneity, and effectiveness.

Key words: philosophical anthropology, Hanna Arendt, Labor, Work, Actoin, Modernity, Totalitarism.